

معاني الأدوات في التفسير اللغوي: الواقع والآفاق

إعداد

د. فخر الدين قباوة

جامعة السلطان محمد الفاتح– اسطنبول

تركيا









التمهيد:

كان العلماء المسلمون وما يزالون يعتقدون أن كلا منهم سيكون سؤاله عسيراً يوم الدين، إذا لقي حتفه ولم يكن له مساهمة في مسيرة الخدمة للكتاب العزيز. ولذلك انصبّت جهودهم المباركة منذ عهد النبوّة في تأسيس العلوم القرآنية وتنميتها هي وما واكبها من المعارف والخبرات، حتى رأيتَ في المكتبات ما لا يُحصى من المصنّفات والرسائل والأبحاث في ميادين هذا النور الإلهي الجليل.

ولقد كان لميدان التفسير[1] نصيب وافر في تلك الجهود الطيّبة، تفجّرت منابعه الأولى في آيات كريمة تستوعب ما كان قبلها من شقائقها يحتاج إلى البيان، فتفسّر بعضه وتبيّن الحكم فيه، ثم بلسان محمد صلى الله عليه وسلم وفي أعماله خلال عهد النبوّة، بالتوضيح والتفسير والإجراءات والتوجيه، حين كان يبلّغ ويدعو ويجاهد ويعلّم ويتصرّف مع أهله وأصحابه والكافرين والمنافقين والمحاربين، ويبيّن معالم الهداية ومقاصدها في العقيدة والعبادة والشريعة والدعوة والفقه والعمل والقيادة، ثم توالت الأنظار والألسن والأقلام بين الصحابة والتابعين الكرام، واتسعت رُقعة الخدمات القرآنية، فشملت الآلاف من العلماء الأفاضل والباحثين إلى يومنا هذا، تصدر عنهم آثار مخلصة وفيّة، تزوّد الناس بما تجدّده حاجات التفسير ومنجزات العلوم والمعارف والتصرّفات في جميع مناحي الحياة ومتطلّباتها.

ولذا امتازت تلك الآثار المباركة بالتنوّع، في علوم كثيرة متباينة المشارب، تُستمدّ توجّهاتها وأصولها من ينابيع الكتاب الربّاني والسّنة المشرّفة، وتنطلق في مسالك مختلفة متكاثرة، ثم تلتقي روافدها في حياضه، لتحقّق بعض بيانِه وعظيمِ خلوده الأبدي، وكان لمصنّفات التفسير ركن ظاهر في تلك الغرَسات الطيّبات، ينمو ويتّسع مع الأيام وتتفرّع ظلاله بألوان من الإيجاز والتوسّط والتفصيل، في نماذج غفيرة تخدم جميع مستويات العِلم والتعليم والعمل والبحث والتأليف.

---

1 – من زعم أن القرآن الكريم لا يفسّر فهو واهم فيما يقول، والتاريخ شاهد عليه. انظر البرهان في علوم القرآن 465/1 وتفسير الشعراوي 9/1 والتفسير والمفسرون في العصر الحديث لعبد القادر محمد صالح ص 219–220.



فقد جاء عن بعض العلماء أنه لكل آية ستون ألف فهم[1]. ولهذا ترى أن تاريخ التصنيف عن النصوص القرآنية مرّ بمراحل متعددة، من الطفولة واليفوع والشباب المستمر أبداً، فأصبح له مذاهب وتوجّهات ومدارس مختلفة، بحسب البينات العلمية والثقافية والمذهبية والسياسية. وخلال ذلك كله تولّد اتجاهان متمايزان متقابلان: أحدهما يهتم بالموسوعية فيستوعب العلوم المعاصرة له بالتفصيل والاستطراد والاحتجاج، والآخر يستهدي البساطة والإيجاز فيكتفي بتفسير المعاني الدقيقة في إشارات واختصار. وفي هذين كلا الاتجاهين قلّ أن ترى نصيباً وافراً لذكر معاني الأدوات في تفسير الآيات الكريمة.

الحروف والأدوات:

الأداة وسيلة يُستعان بها لتأدية عمل ما. وهي عند المناطقة لفظ لا يدل على معنى إلا عند اقترانه بغيره. ثم اختلف الباحثون في تحديد المفهوم النحوي لها، فقيل[2]: «إن الأدوات هي حروف المعاني وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف»، وقيل: «هي كلمات تُستعمل للربط بين المفردات أو للدلالة على معنى في غيرها»، وقيل: إنها تقتصر على حروف المعاني أو تشمل معها الظروف، أو هي مبنىً تقسيمي يؤدي معنى التعليق بين الأجزاء المختلفة من الجملة، أو هي الحروف التي تحمل معنى نحوياً والأسماء والأفعال التي تحمل معنى تلك الحروف وتكون مبنيّة مثلها.

والجدير بالذكر أن تفسير الأداة بالحرف لا يعني تطابق مفهومي المصطلحَين، ولابد من بيان الفرق بينهما. فالأداة هي في الحقيقة أعم وأوسع مدًى، إذ كل حرف أداة لأنها تشمل حروف المعاني وما شابهها من الأسماء والأفعال، وليست كل أداة حرفاً. وعلى هذا فإن الأسماء: «إذ وإذا وأنّى وأيّ وأيّان وأين وأينما وحيثما وسِوَى وغير والكاف وكذا وكلّ وكِلا وكِلتا وكم وكيف ولما وما وماذا ومتى ومع ومُذ ومَن ومُنذ ومهما»، والأفعال: «حاشَى وخلا وعدا وعسَى ولا يكون وليس» هي من الأدوات، ولكنها ليست من حروف المعاني، مادامت تلازم الاسمية أو الفعلية. ثم إن ضمائر الفصل والأفعال الناقصة التي ترد زائدة هي من الأدوات، فلا محل لها من الإعراب، ولا تقتضي عاملاً أو معمولاً.

1 – البرهان في علوم القرآن: 454/1 و154/2. والعدد هنا مطلق للمبالغة لا لتحديد أو تعيين.

2 – الإتقان في علوم القرآن: 247/1 ومفتاح السعادة: 417/2 وكشاف اصطلاحات الفنون: 142/1 ومن أسرار اللغة ص: 278 ومدرسة الكوفة ص: 242 واللغة العربية معناها ومبناها ص: 123 والمعجم الكبير: 156/1 والأدوات النحوية في المعاجم ص: 9–13.



واقع معاني الأدوات في التفسير

إذا فتحنا مِلفّ معاني الأدوات في هذا الميدان رأينا للنحاة بسط قليل من ذلك كما ذكرنا، وللمفسّرين مجالاً أوسع لبيان تلك المعاني وتوظيفها في مصنّفاتهم. فأبن عباس (ت68) –رضي الله عنه– لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ويُنسب إليه تفسيرٌ كثير جدّاً جُمع ما بقي منه تحت عنوان "تفسير ابن عباس"، و"تنوير المقباس من تفسير ابن عباس"، فكانت له أقوال مشهورة في معاني الأدوات.

فممّا رُوي عنه أنه حين عرض للآية المباركة[1]: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدنّ في الأرض مرّتين﴾ جعل "إلى" فيها للاستعلاء بمعنى: على، فقال: أي: "قضينا عليهم"[2]. والمراد أن إلى: للاستعلاء المعنوي. ومعروف أن العلماء اختلفوا في تحليل "ويكأنّ" من قول الله على ألسنة قوم قارون[3]: ﴿ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده﴾ ! فكان لهم في ذلك عدّة أقوال. أما ابن عباس فقد تقدّمهم جميعاً حين ذهب إلى أن "وي" حرف تنبيه، وقال: "ويْ: صلة في الكلام"[4]. يعني أنها كلمةُ تَنَبُّهٍ على الخطأ والتندُّم، أي: أن القوم تنبّهوا فقالوا: ويْ. والمتندِّم من العرب يقول في خلال تندُّمه على الخطأ والتندُّم، أي: أن القوم تنبّهوا فقالوا: ويْ. والمتندِّم من العرب يقول في خلال تندُّمه: ويْ. [5]

ولقد علّق على[6]: ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ بما يلي: إنّ أولئك هم المفلحون[7]، كقوله لنبيّه[8]: ﴿عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾، يقول: إنّ ربك سيبعثك مقاماً محموداً. وهي الشفاعة. وكلّ "عسى" في القرآن فهي واجبة. ثم هو يرى أنّ هذه الأداة قد ترد للتعليل، فيعلّق على[9]:

---

1 – الإسراء: 4.

2 – تفسير البغوي: 106/3 وتفسير القرطبي: 214/10 والمحرر الوجيز: 437/3 وتنوير المقباس: 126/3.

3 – القصص: 82.

4 – تأويل مشكل القرآن ص: 401.

5 – الكشاف: 434/3 وتفسير القرطبي 318/13.

6 – التوبة: 18.

7 – كذا في تفاسير ابن عباس ص: 260 والطبري: 14/167–168 وابن كثير: 326/2 وفي الدر المنثور: 216/3 "المهتدين". وهو أولى لموافقة لفظ الآية المباركة.

8 – الإسراء: 79.

9 – الأنعام: 154.



﴿لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون﴾ بقوله: كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا بالثواب والعقاب[1]. وكذلك ما ذكره في غير ما آية أيضا[2]. هذا في حين أنّه فسّر: ﴿وتتخذون مصانعَ، لعلّكم تَخلُدون﴾[3] بالقول: "كأنّكم تخلدون". وقد جاء في مصحف أُبي بن كعب (ت 21): "كأنّكم"[4]. فـ "لعلّ" هنا تفيد الظنّ والتقريب، وهي مفسِّرة على ذلك في أقدم المصاحف. ورُوي عن ابن مسعود: كي تخلدون[5]. يعني أنها للتعليل، إذ وقعت "كي" في موضع "لعلّ" للتفسير، وجاء الفعل بعدها بلفظه على الحكاية من دون نصب، كما ترى.

وكذلك كانت إشارات طفيفة للمفسّرين في معاني الأدوات من أمثال: مُقاتل ومُجاهد، ثم جاء أبو عبيدة فكان له في التفسير عِلم ظاهر حتى لقد ذُكر له: تفسير القرآن ومعاني القرآن ومجاز القرآن. وأنت إذا رجعتَ إلى هذا الكتاب الأخير –وهو مصنّف تفسير وظنّه كثير من جهلة الباحثين مصنّف بلاغة وجعلوه في المكتبة البلاغية– وقفت فيه على أقوال غفيرة في معاني الأدوات. حتى إنه ليُدخل فيها ما ليس منها. وقد افتتح ذلك بقوله: «ومن مجاز الأدوات اللواتي[6] لهنّ معانٍ في مواضع شتّى، فتجيء الأداة منهنّ في بعض تلك المواضع لبعض تلك المعاني». ومن ذلك أنه أورد قول الله تعالى[7]: ﴿ولأصلبنَّكم في جذوع النخل﴾ وذكر أن معناه: على جذوع النخل. وقال في: ﴿إذا اكتالوا على الناس يستَوفون﴾[8]: معناه: من الناس. وذكر في قول الله تعالى: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي. أفلا تبصرون؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين﴾[9] معناه: بل أنا خيرٌ.

1 – البحر: 32/7 وتفسير الآلوسي: 88/8 والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص 534–536.

2 – انظر تنوير المقباس: 74/2 في تفسير الآيتين 152و153 من سورة الأنعام.

3 – الشعراء: 129.

4 – تفسير الرازي: 523/8 والكشاف: 326/3 والبحر: 32/7.

5 – المحرر الوجيز: 238/4 والبحر: 32/7 وتفسير الآلوسي: 165/19.

6 – اللواتي: مبتدأ يتعلق بخبره: من مجاز. انظر مجاز القرآن: 4/1.

7 – طه: 71. ومجاز القرآن 4/1.

8 – المطففين: 2. ومجاز القرآن 4/1.

9 – الزخرف: 51. ومجاز القرآن 4/1.



وقد تابع هذه المسيرة يتكلّم على معاني قليل من الأدوات فيما بعدُ، مع اهتمام بالنصّ على ما هو مزيد في الإعراب واستشهادٍ بنماذج من الشعر نحو[1]: ﴿لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً﴾ قال: معناها: أن يضرب مثلاً بعوضةً، "ما" توكيد للكلام من حروف الزوائد. قال النابغة الذبياني:

قالت: ألا لَيتَما هذا الحَمامَ لنا إلى حمامتِنا ونِصفَهُ، فقَدِ

أي: حسبُ. و"ما" ههنا حشو. ومن ذلك: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ [2] قال: فبنقضِهم. والعرب تستعمل "ما" في كلامها توكيداً. وقال: ﴿وإذ تأذّن ربّكم﴾[3] مجازه: وآذنَكم ربُّكم، وإذ: من حروف الزوائد، وتأذّن: تَفَعَّلَ من قولهم: أذَنْتُهُ. ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾[4] مجازه: ومَن يعمل الصالحات، و"مِن" من حروف الزوائد. ﴿هل من شُركائكم من يفعلُ مِن ذلكم من شيء؟ سبحانه وتعالى عمّا يُشركون﴾[5] مجازه: مَن يفعلُ من ذلكم شيئاً، و"مِن" من حروف الزوائد.

وإذا تصفّحت "معاني القرآن" للأخفش والفرّاء والزجّاج والنحّاس وتفاسير الطبري والماتريدي والحَوفي والتبريزي والبغوي وقفتَ على قليل من تعرّض لمثل هذه المعاني. ولذلك قسا الزمخشري بالنقد لأسلافه في تقصيرهم، وذكر أن معالم التفسير لا يتصدّى أحد لسلوكها ولا يغوص على شيء من حقائقها "إلا رجل قد برع في علمَين مختصَّين بالقرآن —وهما علم المعاني وعلم البيان– وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبّع مظانّهما همّة في معرفة لطائف حجّة الله، وحرَص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظّ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحِفظ"[6].

ثم حاول أن يسدّ تلك الثغرة بالوقوف على بعض الأدوات لتوضيح معانيها، فذكر[7] أن التعريف في ﴿الحمد لله﴾ هو "نحو التعريف في: أرسَلَها العِراكَ. وهو تعريف الجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو؟ والعِراك ما هو؟ من بين أجناس الأفعال. والاستغراقُ الذي يتوهّمه كثير من الناس

1 – البقرة: 25. ومجاز القرآن 8/1.

2 – النساء: 155. ومجاز القرآن 30/1.

3 – إبراهيم: 7. ومجاز القرآن 59/1.

4 – النساء: 124. ومجاز القرآن 78.

5 – الروم: 40. ومجاز القرآن 97.

6 – الكشاف عن حقائق التنزيل: 7/1. هذا هو عنوان الكتاب كما ذكر الزمخشري في ص 8 من الخطبة، وقد أقحم فيه ما أفسد مراده، إذ جُعل كما يلي: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.

7 – الكشاف: 19/1–20.



وهَمٌ". والواقع أن تنظيره بالعِراك لا وجه له هنا، لأنه هو نفسه[1] والنحاة من زملائه جعلوا "أل" جنسية لتعريف الماهية، والقول بالاستغراق هنا هو الأولى.

أما باء البسملة فقد اضطرب قوله فيها، إذ جعل تعلّقها "بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو. ونظيره في حذف متعلق الجارّ قوله عز وجل[2]: ﴿في تِسعِ آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ﴾ أي: اذهب في تسع آيات"، ثم عاد فذكر أن التعلّق "فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها [أي: بالكتبة] تعلُّقَ القلم بالكَتْبة في قولك: كتبتُ بالقلم على معنى أن المؤمن.. جعل فِعلَه مفعولاً باسم الله كما يُفعل الكتبُ بالقلم، والثاني أن يتعلّق بها تعلُّق الدُّهن بالإنبات في قوله[3]: ﴿تُنبتُ بالدُّهنِ﴾ على معنى: متبرّكاً باسم الله أقرأ"[4]. ومن هذا ترى أنه جعل الباء أولاً للإلصاق المعنوي حين علّق الباء بالفعل: أبدأ، ونظّره بما هو للمصاحبة في آية النمل، ثم جعلها للاستعانة في الكَتْبة ورجع إلى الملابسة بآية: المؤمنون. وأخيراً فالتقديم "على العامل عنده يوجب الاختصاص، وليس كما زعم" لأنه يكون للاهتمام والعناية[5]. وعلى مثل هذا تراه يضطرب في تعداد الوجوه للمعنى الواحد في كثير من تفسيره مع تسمُّح في التوجيه واستعمال الاصطلاح.

وقد تابعه المفسّرون من بعده يُولون بعض الأدوات تفسيراً، متأثرين أقواله وأحكامه فكان ذلك عند أمثال البيضاوي والنسفي والرازي والقرطبي والكواشي والخازن، حتى جاء أبو حيّان فذكر أنه أضاف في تفسيره "ما استخرجته القوة المفكّرة من لطائف علم البيان، المطلع على إعجاز القرآن"[6]. وهو إنما يريد "علم المعاني" المعروف عند البلاغيّين، ويشير إلى اهتمامه بذلك في معالجته للتفسير. وكذلك كان شأن المفسّرين المتاخّرين كالسمين الحلبي وأبي السعود والشوكاني وابن عاشور والآلوسي، فصار لهم من الجهود ما فاق محتويات مصنّفات النحو.

1 – انظر كتابه المفصل ص: 91.

2 – النمل: 12.

3 – المؤمنون: 20.

4 – الكشاف: 1/12-14.

5 – انظر البحر المحيط: 1/127.

6 – البحر المحيط: 1/100. وقد لخص أبو حيان مصنّفه هذا تحت عنوان: النهر المادّ، ثم لخص ذلك أيضا باسم: الساقية.



آفاق معاني الأدوات في التفسير

مع أن للأدوات عوالم ضخمة واسعة الأمداء في المساعدة على خدمة القرآن الكريم، فإنك ترى لقليل منها في كتب التفسير والأعاريب إشارات سريعة خفيفة وبعبارات مقتضبة، ولا تجد استيعاباً لواحد منها أو لدلالاتها عند أحد من العلماء، حتى إن ما وقفوا عليه أو عبّروا عنه إلا يساوي 5% مما يحويه القرآن الكريم. لكأنهم أغفلوا ذلك الباقي وهو 95% من الواجب بيانُه لما في صدورهم من علمه وإدراكه، وهم يظنون أنه حاضر في صدور الدارسين والقارئين والباحثين. والحقّ أن هذا الظنّ غير وارد في صفوف المتأخّرين من الأجيال والمعاصرين لنا، فقد وجب الوقوف عنده وفاء بالبيان والتفصيل والاستيعاب.

ولأنني لمست هذا الفراغ في ميادين تلك المصادر والمراجع وفي أذهان من حولي من الأساتذة والدارسين والباحثين، وأنا أتابع التعلّم والتعليم والبحث والتحقيق والتأليف والتوجيه والاختبار، رأيتني ملزماً القيامَ بالعمل لاستيفائه وملئه، فشرعت بشيء منه في محاضراتي ودروسي الجامعية، وأصدرت بعضه في "المورد النحوي الكبير" نموذجاً مبسّطاً ميسَّراً ومقتضباً، ثم توجّهتُ إلى استيعاب جميع العناصر في "المفصّل في تفسير القرآن الكريم" وما بعده من المصنّفات.

ولقد كان آخر ذلك في "شرح بانت سعاد، وشرح القصائد السبع الطوال، ورياض الصالحين للإمام النووي"، حيث شرحت معاني الأدوات بالدقة والتسلسل والتفصيل، باعتمادٍ في كثير منها على شِبه نُثار من نهج واضح القسَمات، ثم وقفت بالتفصيل والاستيعاب الكاملين في "الإعراب المنهجي للقرآن الكريم"، أسرد تلك المعاني ولو تكررت في الصفحة الواحدة، لأن القارئ قد يكون في البحث عن عبارة معيّنة فليس مطالباً بقراءة ما قبلها وما بعدها. واكتفيت ببيان معنى "أل" في لفظ الجلالة مرة واحدة لأنها كثيرة الورود بشكل ملحوظ. وكذلك أغفلت الكلام على معاني تاء التأنيث والتنوين لأنها ميسورة ومحدودة. ولما كان لبعض الأدوات عدّة معان وظيفية وجب أن توزَّع هذه المعاني فيُذكر منها في الإعراب ما هو ألصق به، ويُترَكَ الباقي ليكون له الحضور في حقل المعاني النحوية البيانية.

هذا، وقد أضاف المفسّرون والنحاة والمعرِبون واللغويون وعلماء البيان إلى مقولات البصريّين والكوفيّين في تلك الدلالات تفريعات وتفصيلات من المعاني النحوية البلاغية، جمعنا نحن ما انتثر منها في المصنّفات المختلفة مضيفين إليه شذرات متمّمة، وألّفنا بين ذلك في عبارات واضحة ليكون فيما نقوله استيعاب واف، لما يكون في الحديث عن التحليل السياقي للأدوات.



وخلال تجوالنا في الآفاق العملية لتوظيف معاني الأدوات في التفسير، كان مبدأ مذهبنا أن الأداة لها دلالة خاصة بها متميّزة، خلافاً لما عليه جمهور النحاة من قولهم عن حروف المعاني: "إنها ترد لمعان في الاسم والفعل"، وهم يريدون أن كلاًّ منها له معنى إفرادي، وأنه حين يُقرن بالاسم أو بالفعل يضيف إليه المعنى النحوي المعروف، متحصّلاً بما اقترن به لا منه وحده. والحقّ أن الحرف النحوي ذو دلالة معنوية مستقلّة ظاهرة فيه، تتجسّد في الذهن مع ذكره، وقد تكون وحيدة أو ذات عدّة توجّهات محتملة، فإذا انتظم في عبارة تجرّد لمقصَد معيَّن وزالت عنه سائر الاحتمالات.

وهذا ما عبّر عنه الإمام عليّ –رضي الله عنه– منذ ألف وأربعمائة سنة حين عرّف الحرف بأنه "المعنىً"، فقال: "ما أنبأ عن معنىً ليس باسم ولا فعل". وقد تأثّر هذا القولَ بعض العلماء كسيبويه وخلف الأحمر، ثم اضطربت مذاهب النحويّين في توضيح المفهوم، ساد منها بينهم أن الحرف "ما دلّ على معنىً في غيره"، مع تفسيرات مشتّتة متضاربة. على أننا نجد في القرن السابع ابن النحاس محمد بن إبراهيم الحلبي يعيد إلى المسألة وجهها الأصيل بقوله: "إن الحرف معناه في نفسه". ومع هذا كله جرت التفاسير على القليل القليل من توظيف تلك المعاني، ولكن يتبيّن لكم ما كان عليه المفسّرون في ذلك من التقصير، أورد لكم ما يلي للمطالعة في الإعراب المنهجي:

سورة القلم نموذجاً:

بسم الله الرحمن الرحيم: بسم: الباء: للاستعانة. والله: أل: زائدة لازمة للتزيين اللفظي ومبالغة التعظيم. والرحمن: أل: جنسية للمبالغة والكمال. والرحيم: أل: جنسية للمبالغة والكمال أيضا.

ن: من الأحرف المقطّعة، استأثر الله بعلمها وهي سِرّه المكنون في كتابه العزيز ولذلك لا نُعربها. والواو: للقسم. والقلم: أل: عهدية ذهنية. وما: الواو: حرف عطف، عاطفة لمطلق الجمع. وما: اسم موصول لغير العاقل.1 ما أنت: ما: حرفية نافية للحال اللازمة. وبنعمة: الباء: للسببية. وبمجنون: الباء: لتوكيد النفي وتحقيق ما تضمّنه.2 وإنّك: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإنّ: للتوكيد. ولك: اللام: للاستحقاق. ولأجراً: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وغير: وصفية للمغايرة.3 وإنّك: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإنّ: للتوكيد. ولعلى: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وعلى: للاستعلاء المعنوي.4

فستُبصر: الفاء: للاستئناف. والسين: لتوكيد حصول الفعل في المستقبل. ويُبصرون: الواو: عاطفة لمطلق الجمع.5 بأيّكم: الباء: للظرفية المكانية بمعنى: في. وأيّ. استفهامية لطلب التعيين وللتعريض بجبابرة



قريش. والميم: حرف لجمع الذكور مع التغليب. والمفْتُونُ: أل: عهدية ذكرية.6 إنّ: للتوكيد. وبمَن: الباء: للإلصاق المعنوي. وعن: للمجاوزة المجازية. وهو: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وبالمهتدين: الباء للإلصاق المعنوي. وأل: حرفية موصولة للعاقلين.7

فلا تطع: الفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية. ولا: طلبية للنهي، أي: طلب ألاّ يقع الفعل وفيه تهييج وإلهاب للتصميم على المخالفة للكافرين. والمكذّبين: أل: جنسية للاستغراق العرفي.8 لو: مصدرية للمستقبل. فيدهنون: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية.9

ولا تطع: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. ولا: طلبية للنهي أيضا، أي: طلب ألاّ يقع الفعل. وكلّ: لاستغراق أفراد النكرة يفيد التوكيد.10 بنميم: الباء: للتعدية.11 للخير: اللام: للتقوية والتوكيد. والخير: أل: جنسية لتعريف الماهية.12 ذلك: اللام: لتوكيد البعد مبالغة في القبح والمذمّة ودفعاً لتوهم الإضافة. والكاف: حرفية للخطاب والبُعد.13 أن: مصدرية للماضي. وبنين: الواو: عاطفة لمطلق الجمع.14 إذا: اسمية شرطية ظرفية زمانية للتكرار. وعليه: على للاستعلاء المعنوي. والأوّلين: وأل: عهدية ذهنية.15 سنسمه: السين: لتوكيد حصول الفعل في المستقبل. وعلى: للاستعلاء الحقيقي. والخرطوم: أل: نائبة عن ضمير الغائب.16

إناّ: إنّ: للتوكيد. وبلوناهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وكما: الكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. وما: حرفية مصدرية. والجنّة: أل: عهدية ذهنية. وإذ: اسمية ظرفية زمانية للماضي. وليَصرمُنّ: اللام: جوابية للتوكيد. والنون المشدّدة: للمبالغة في التوكيد وإخراج مضمون الفعل عن الحال.17 ولا يستثنون: الواو: للحال والاقتران. ولا: نافية للحال.18 فطاف: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وعليها: على: للاستعلاء الحقيقي. ومِن: لابتداء الغاية المكانية المعنوية. وهم: الواو: للحال والاقتران.19 فأصبحت: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. والكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. والصَّريم: وأل: جنسية لتعريف المفرد.20

فتنادوا: الفاء: عاطفة للترتيب والتحقيق.21 أن اغدوا: أنِ: للتفسير. وعلى: للاستعلاء المجازي. وحرثكم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وإن: شرطية للمستقبل. وكنتم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب.22 فانطلقوا: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وهم: الواو: للحال والاقتران. 23 أن: للتفسير. ولا يدخلنّها: لا: طلبية للنهي. والنهي ظاهره للمساكين وحقيقته أنه للمتخاطبين، عُبِّر به كذلك لأنه أبلغ في المنع من الدخول. والنون المشدّدة: للمبالغة في التوكيد وإخراج مضمون الفعل عن الحال. واليوم:



أل: عهدية حضورية. وعليكم: على: للاستعلاء المجازي. والميم: لجمع الذكور مع التغليب.24 وغدوا: الواو: للحال والاقتران. وعلى: للاستعلاء المعنوي.25

فلمّا: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. ولما: اسمية شرطية ظرفية زمانية للماضي. وإنّا: إنّ: للتوكيد. ولضالّون: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال.26 بل: عاطفة للإضراب الإبطالي والحصر.27 أوسطهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وألم: الهمزة: استفهامية للتحقيق والتوبيخ والتعجّب. فهي في الأصل للنفي، ولما دخلت على نفي صار المراد للتحقيق، أي: قد قلتُ لكم ذلك حقّا، من قبلُ حين عزمتم على المنع. ولم: للنفي والقلب. ولكم: اللام: للتبليغ. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ولولا: للتحضيض.28

إنّا: إنّ: للتوكيد.29 فأقبل: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وبعضُهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وعلى: للاستعلاء المعنوي.30 يا ويلنا: يا: للتنبيه. وإنّا: إنْ: للتوكيد.31 عسى: للرجاء والطمع. وأنْ: مصدرية للمستقبل. ومنها: مِن: لابتداء غاية التفضيل. وإنآ: إنْ: للتوكيد أيضا. وإلى: لانتهاء الغاية المكانية المعنوية.32 كذلك: الكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. واللام: لتوكيد البعد مبالغة في التهويل والتعظيم ودفعاً لتوهُّم الإضافة. والكاف: حرفية للخطاب والبُعد. والعذاب: أل: عهدية ذهنية. ولعذاب: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. اللام: للتوكيد. والآخرة: أل: عهدية ذهنية أيضاً. ولو: للتمنّي.33 إنّ: للتوكيد. وللمتقين: اللام: للاختصاص. وأل: جنسية للاستغراق الحقيقي. وربهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. والنعيم: أل: جنسية للمبالغة والكمال.34

أفنجعل: الهمزة: استفهامية للنفي والتعجيب مع التوبيخ لهم على ما يزعمون، أي: مُحال أن يكون ذلك ولا ينبغي لكم أن تزعموه. والفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية، إذ النفي مترتّب على مافي الآية المتقدمة. وقدّمت الهمزة على الفاء لأنّ لها تمام التصدير. والمسلمين: أل: جنسية لتعريف الماهية. وكالمجرمين: الكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. وأل: جنسية لتعريف الماهية أيضاً.35

ما لكم: ما: اسمية استفهامية للتقريع والتوبيخ والتعجيب. واللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وكيف: استفهامية لطلب تعيين الحال مع التعجيب والإنكار التوبيخي والتبكيت.36 أم: استئنافية للإضراب الانتقالي والاستفهام المنفي للمقابلة بما ورد في الآية المتقدمة ليكون إنكارٌ عقلاً ونقلاً. ولكم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وفيه: في: للظرفية المكانية.37 إنّ: للتوكيد.



ولكم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وفيه: في: للظرفية المكانية. ولما: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وما: اسمية موصولة لغير العاقل.38

أم: استئنافية للإضراب الانتقالي والاستفهام المنفي لتوكيد المقابلة بما ورد في الآية36 أيضا ليكون إنكارٌ عقلاً ونقلاً. ولكم: اللام: للاختصاص أيضاً. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وعلينا: على: للإضافة، إذ لا يجوز ذكر الاستعلاء هنا تأدّباً. وإلى: لانتهاء الغاية الزمانية. والقيامة: أل: عهدية ذهنية. وإنّ: للتوكيد. ولكم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ولما: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وما: اسمية موصولة لغير العاقل.39 سلهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وأيّهم: أيّ. استفهامية لطلب التعيين وللنفي والتعجيز. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وبذلك: الباء: للإلصاق المعنوي. واللام: لتوكيد البعد مبالغة في التهويل ودفعاً لتوهّم الإضافة. والكاف: حرفية للخطاب والبُعد.40

أم: استئنافية للإضراب الانتقالي والاستفهام المنفي لتحقيق توكيد المقابلة بما ورد في الآية36 كذلك ليكون إنكارٌ عقلاً ونقلاً. ولهم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. فليأتوا: الفاء: هي الفصيحة للاعتراض والسببية بين المتعاطفتين. واللام: طلبية للأمر يفيد المستقبل تحدّياً وتعجيزاً، سكنت تخفيفاً لدخول الفاء عليها. وبشركائهم: الباء: للتعدية. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وإنْ: شرطية للماضي والحال والاستقبال.41 عن: للمجاوزة المعنوية. ويُدعَون: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإلى: لانتهاء الغاية المكانية المجازية. والسجود: أل: نائبة عن ضمير الغائبين. فلا يستطيعون. الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. ولا: نافية للحال اللازمة.42 أبصارهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وترهقهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب أيضاً. وقد: الواو: للحال الماضية. وقد: حرف تحقيق. وإلى: لانتهاء الغاية المكانية المجازية. والسجود: أل. عهدية ذكرية. وهم: الواو: للحال والاقتران.43

فذرني: الفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية. والنون: للوقاية. ومَن: الواو: للتنصيص على المصاحبة. وبهذا: الباء: للتقوية والتوكيد. وها: لتوكيد التنبيه. والحديث: أل: عهدية حضورية. وسنستدرجهم: السين: لتوكيد حصول الفعل في المستقبل. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ومِن: لابتداء الغاية المكانية. وحيث: للمكان. ولا يعلمون: لا: نافية للحال اللازمة.44

وأملي لهم: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. واللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وإنّ: للتوكيد.45



أم: عاطفة للإضراب الانتقالي والاستفهام المنفي منسحباً على الجملة الثانية للمبالغة في تحقيق توكيد المقابلة بما ورد في الآية 36 ليكون إنكارٌ عقلاً ونقلاً. وتسألهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. فهم: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. ومِن: للسببية.46 أم: عاطفة للإضراب الانتقالي أيضا والاستفهام للمبالغة في تحقيق توكيد المقابلة بما ورد في الآية 36 ليكون إنكارٌ عقلاً ونقلاً. وعندهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. والغَيب: أل: جنسية لتعريف الماهية. فهم: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية.47

فاصبر: الفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية. ولحكم: اللام: للتعليل. ولا تكن: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. ولا: طلبية للنهي، يراد به عدم وقوع الفعل. والكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. والحُوت: أل: عهدية ذهنية. وإذ: اسمية ظرفية زمانية للماضي. وهو: الواو: للحال والاقتران.48

لولا: شرطية امتناعية لوجود في الماضي. وأنْ: مصدرية للماضي. ومِن: لابتداء الغاية المكانية المعنوية. ولنبذ: اللام: جوابية للتوكيد. وبالعراء: الباء: للظرفية المكانية. والعَراءِ: وأل: جنسية لتعريف المفرد. وهو: الواو: للحال والاقتران.49 فاجتباه: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. فجعله: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية أيضاً. ومِن: للتبعيض. والصالحين أل: جنسية لتعريف الماهية.50

وإن: الواو: للاستئناف. وإن: للتوكيد، مخفف من: إنّ. والذين: أل: زائدة لازمة للتزيين اللفظي، أدغمت لامها في اللام. وليُزلِقونك: اللام: للتفريق وللتوكيد والعوض من حذف نون: إنْ. وبأبصارهم: الباء: للاستعانة. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ولما: اسمية ظرفية زمانية للماضي. والذِّكر: أل: عهدية ذهنية. ويقولون: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإنّه: إنّ: للتوكيد. ولمجنون: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال.51 وما: الواو: للحال والاقتران. وما: حرفية نافية للحال اللازمة. وإلاّ: استثنائية للحصر. وللعالمين: اللام: للتقوية والتوكيد. وأل: عهدية ذهنية.52

هذا ما تقتضيه آفاق الاهتمام بمعاني الحروف في التفسير اللغوي لتتحقق مقاصده. ولو استعرضت ما جاء منه في التفاسير المشهورة بذلك الاهتمام لما رأيت عُشر مِعشاره. خذ منها مثلا صنيع الزمخشري، وهو صاحب علمَي المعاني والبيان. فحين تتصفّح ما ذكره في هذه السورة المباركة مما نحن فيه ترى ما يلي: ذكرَ أن الباء في "بمجنون" زائدة لتأكيد النفي، و"بأيّكم المفتون" مزيدة، وأن "على" يجوز أن يضمّن الغدوّ معنى الإقبال، أي: فأقبلُو على حرثكم باكرين.



أمّا ما تراه لدى أبي حيّان فهو يقول: وقرأ الحسن "أإذا" على الاستفهام، وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله: "القرآن أساطير الأولين"، والاستفهام في "أفنجعل" للتوقيف على خطإ ما قالوا والتوبيخ، ثم التفت إليهم فقال: ما لكم؟ أي: أيُّ شيء لكم فيما تزعمون؟ وهو استفهام إنكار عليهم، ثم قال: كيف تحكمون؟ وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عيهم، ثم أضرب عن هذا إضراب انتقال لشيء آخر لإبطال ما قبله فقال: أم لكم؟ أي: بل ألكم؟

وأمّا أبو السعود فيذكر في تفسيره أنّ الاستفهام في "أفنجعل" تقرير لما قبله من فوز المتّقين بجنّات النعيم، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام أي: أنَحيف في الحُكم فنجعل المسلمين كالكافرين؟ ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده: ما لكم كيف تحكمون؟ تعجبياً من حُكمهم واستبعاداً له وإيذاناً بأنه لا يصدر عن عاقل.

وأمّا ابن عاشور فهو طويل النفس، يورد في "التحرير والتنوير" أنّ قول الكافرين "إنّه لمجنون" وتأكيدَهم ذلك بحرف "إنّ" ولام الابتداء أُجيبا بمؤكّدات أقوى ممّا في كلامهم، إذ أُقسِم على ذلك، وجيء بعد النفي بالباء التي تُزاد بعد النفي لتأكيده، وبالجملة الاسمية منفيّة لدلالة الجملة الاسمية على ثبات الخبر، أي تحقُّقه. فهذه ثلاثة مؤكّدات. وذكر أنّ الباء في "بنعمة" للملابسة أو السببية، أي بسبب إنعام الله إذ برّأك من النقائص، وأنّ على: للاستعلاء المجازي المراد به التمكّن، والفاء في "فَسَتُبْصِرُ" للتفريع على قوله: "ما أنت بنعمة ربك بمجنون" باعتبار ما اقتضاه قوله: "بنعمة ربك" من إبطال مقالة قيلت في شأنه، وفرّع عليها أنهم إذا نظروا الدلائل وتوسّموا الشمائل علموا: أيُّ الفريقين المفتونُ، أهم مفتونون بالانصراف عن الحقّ والرشد، أم هو باختلاف العقل؟

وذكر أنّ "أيّ" في "بأيّكم المفتونُ" معناه: أيّ رجل، أو أيّ فريق منكم المفتون؟ ف "أيّ" في موقعه هذا اسم في موقع المفعول لـ تُبصر ويُبصرون" أو متعلق به تعلّق المجرور. والباء على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلّق الفعل بمفعوله، ويجوز أن تكون للظرفية، والمعنى: في أيّ الفريقين منكم يوجد المجنون، أي: مَن يصدُق عليه هذا الوصف؟ فيكون تعريضاً بأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما من مدّبري السوء على ذهماء قريش. ويجوز أن تكون الباء للملابسة في محلّ خبر مقدّم على "المفتُونُ" وهو مبتدأ. وكلمة "كُلّ" هنا تفيد النهي العام عن طاعة كلّ فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها "كُلّ" بالمباشرة وبالنعوت.

والفاء في "فيُدهِنُون" للعطف والتسبب عن جملة "لو تُدهِنُ" جواباً لمعنى التمنّي المدلول عليه بفعل "وَدُّوا"، و"لو" يحتمل أن يكون شرطيا، ويكون فعل "تُدهِنُ" شرطاً، وأن يكون جواب الشرط محذوفاً ويكون



التقدير: لو تُدهن لحصل لهم ما يودّون، ويحتمل أن يكون حرفاً مصدريّاً فيكون التقدير: ودّوا إدهانك. و"مِن ربِّكَ" أي: جائياً من قبل ربك. ف "مِن": للابتداء. يعني: إنه عذاب أُرسل إليهم عقاباً لهم على عدم شكر النعمة. و"على" من قوله: "على حَرثِكُم" مستعملة في تمكّن الوصول إليه كأنه قيل: اغدوا تكونوا على حرثكم، أي: مستقرّين عليه. وإذا حُمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان "على حَرد" متعلّقاً ب "غَدَوا" مبيّناً لنوع الغدوّ، أي: غدَوا غدوَّ سرعة واعتناء، فتكون "على" بمعنى باء المصاحبة.

واللام في "إنّ للمتقين عند ربّهم جنّات النّعيم" للاستحقاق، والهمزة في "أفنجعل" للاستفهام الإنكاري، فرّع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين. و"ما لكم" استفهام إنكاري لحالة حُكمهم، و"كيف تحكمُونَ" استفهام إنكاري ثانٍ، والاستفهام المقدَّر مع "أم" إنكار لأن يكون لهم كتابٌ، وضمير "فيه" عائد إلى الحُكم و"في" للتعليل أو الظرفية المجازية، والاستفهام في "أيّهم" مستعمل في التهكّم زيادة على الإنكار عليهم، وفي "أم لَهُم" إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم، واللام في "لهم" لام الأجْل، أي: لأجْلهم، بتقدير مضاف، أي لأجْل نصرهم، والواو: واو معية وما بعدها مفعول معه، ولام "لهم" هي اللام المسمّاة لام التبيين، والاستفهام الذي تؤذن به "أم" استفهام إنكار. وقد جاءت الإبطالات السالفة متعلّقة بما يُفرض لهم من المعاذير.

ثم نرى الآلوسي أطول نفساً في "روح المعاني"، إذ يذكر أن "ما أنت بنعمة ربك بمجنون" جواب القسم والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفي، والباء الأولى للملابسة، وفي "بأيّكم" للملابسة أو بمعنى "في"، والمعنى: بأيّ الفريقين منكم الجنون؟ أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيّهما يوجد من يستحقّ هذا الاسم؟ وهو تعريض بأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما. والفاء في "فلا تطع" لترتيب النهي على ما ينبئ عنه ما قبله. و"فيُدهنون"، أي: فهم يُدهنون حينئذ أو فهم الآن يدهنون طمعاً في إدهانك. فالفاء للسببية. و"منّاع للخير" أي: بخيل ممسك، فاللام للتقوية والخيرُ المال، أو منّاعٍ الناسَ الخيرَ، كأنه قيل: منّاعٍ من الخير. وقرأ الحسن "أإذا" وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله: أساطير الأولين.

وأن اغدوا أي: اخرجوا، وأنْ: تفسيرية، أو بأن اغدوا، على أنّ "أنْ" مصدرية، وقبلهما حرف جر مقدر. وعُدِّيَ ههنا ب "على" لتضمين الغدوّ معنى الإقبال، ويجوز أن يكون بمعنى: أغار، شُبّه غدوّهم لقطع الثمار بغدوّ الجيش على شيء، لأن معنى الاستعلاء والاستيلاء موجود فيه وهو الصّرم والقطع.

و"ما لكم كيف تحكمون" تعجّب من حُكمهم واستبعاد له وإيذان بأنه لا يصدر من عاقل. وفي هذه الآيات نفي جميع ما يمكن أن يتعلّقوا به في تحقيق دعواهم، نفيُ الدليل العقلي بقوله "ما لكم كيف



تحكمون"؟ ونفيُ الدليل النقلي بقوله "أم لكم كتاب" ؟ ونفيُ أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله "أم لكم إيمان علينا"؟ ونفيُ التقليد الذي هو أوهن من جبال القمر بقوله "أم لهم شركاء" ؟ و"إن يكاد" إن: هي المخففة واللام دليلها لأنها لا تدخل بعد النافية، ولذا تسمّى الفارقة على عُرفٍ عند النحاة.

وأنت ترى معي أن المتأخّرون ينقلون عمن تقدمهم ما جاء عن الباء الزائدة والظرفية وعن الاستفهام من الإنكار والتوبيخ والنفي، ويضيفون إلى ذلك لمسات دلالية سريعة، ثم يتردّد لديهم بأنفاس مطوّلة ترتبُ معاني الجُمل على ما قبلها، ومعنى: لو وعلى ومِن واللام والفاء وأيّ وأنْ. ومجمل هذا كما ترى هو بمصطلحات وتعابير مختلفة وهو لا يوازي أقلّ القليل مما تقتضيه معاني الأدوات كمّاً وكيفاً في هذه السورة المباركة. فما قولك في جميع النص الرباني المبين؟ وقد وجّهنا الله –تعالى– إلى ذلك الميدان الكريم الوافي ويسَّر لنا العمل به، فكان توسعة للآفاق المرجوة في إتمام التفسير لمعاني القرآن العظيم، وتجربة متواضعة نأمل أن يزوّدها العلماء بالتوجيه والإغناء لتكون على خير ما يرام.

وليس لنا أن نطالب جميع المفسّرين باستيفاء ذلك. فحسب كلّ منهم التعرض لما يراه في حاجة إلى البيان ويتسنّى له ذكره بمصطلحات مقنّنة وعبارات محدّدة، ثم يجب على مصنّفي أعاريب القرآن الكريم هذا الاستيفاء لأنه ألصق بالإعراب، وإن كان يفيد في تفسير المعاني كثيراً من الفوائد الدلالية المرجوّة. فالهداية والتوفيق من المولى –عزّ وجلّ– والحمد له على ما أصبنا وأحسنّا، والمغفرة منه لما أخطأنا وأسأنا، وهو على كل شيء قدير.

